

التداخل في نظرية المعرفة في الفكر الغربي "المادية والعقلانية" أنموذجاً

د. خالد بن عبد العزيز السيف
أستاذ في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة
جامعة القصيم
المملكة العربية السعودية

التداخل في نظرية المعرفة في الفكر الغربي "المادية والعقلانية أنموذجاً"

خالد بن عبد العزيز بن محمد السيف

قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة القصيم

البريد الإلكتروني : kasaif@gmail.com

الملخص:

تعتبر المادية والعقلانية من أهم المناهج والأدوات في إنتاج المعرفة في الفكر الغربي، وتشترك المادية والعقلانية في أنهما تستبعدان أي معرفة ماورائية أو لا يشهد لها العقل أو التجربة، وفي المقابل فإن المادية والعقلانية ليستا نمطين معرفيين مستقلين عن بعضهما استقلالاً تاماً، ولكن بينهما اشتراك وتداخل، ولا يمكن بحال تكوين معرفة عقلية محضة دون المرور على مفاصل مادية، وفي المقابل لا يمكن تكوين معرفة مادية محضة دون أن يكون خلفها جهاز عقلي ينظِّمها، وهذا البحث يلقي الضوء على هذا التداخل والاشتراك في أهم أدوات من أدوات إنتاج المعرفة في الفكر الغربي.

كلمات مفتاحية: المادية، العقلانية، التداخل في الفكر الغربي، نظرية المعرفة

The overlap in the epistemology of Western thought, "materialism and rationality" as a model

Khalid bin Abdul-Aziz bin Muhammad al-Saif
Department of Islamic Doctrine & Contemporary Ideologies College of Shariʿah & Islamic Studies, Qassim University
Email: kasaif@gmail.com

Abstract:

Materialism and rationality are considered one of the most important methods and tools in the production of knowledge in Western thought. Materialism and rationality have the same in that they exclude any metaphysical knowledge or for which reason or experience is not attested. On the other hand, materialism and rationality are not two cognitive styles completely independent of each other, but they are combined and overlapping, It is not possible in any way to form a pure rational knowledge without going through physical joints, and on the other hand it is not possible to create a pure material knowledge without having behind it a mental apparatus that organizes it, and this research sheds light on this overlap and participation in the most important tools of knowledge production in Western thought.

Keywords: Materialism, rationalism, interference in Western thought, epistemology

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله أما بعد

إن الاتجاهات الفكرية المعاصرة هي منتجات فكرية من منتجات الإنسان، نشأت من حاجات الإنسان نفسه لمحاولة تقديم حلول لمشكلات يواجهها على اختلافٍ في هذه المشكلات من حيث قربها أو بعدها عن الدين والوحي، ومن حيث زمانها أو مكانها، لكن يجمعها جامع واحد وهي أنها في الغالب تشكَّلت بعيداً عن الوحي، وأنها محاولة لتقديم حل لمشكلات قائمة، وبما أن حاجات الإنسان في الغالب متقاربة على اختلاف هذا الإنسان زماناً ومكاناً؛ فإن أغلب هذه المذاهب وهذه الاتجاهات المعاصرة متداخلة فيما بينها، فما يوجد في اتجاه أو مذهب قد يكون موجوداً في مذهب آخر، ولكن الاختلاف يكمن في مدى تعاطي هذا المذهب أو ذاك مع هذه المركزات الأساسية، فغالبية الاتجاهات الفكرية المعاصرة تتشابه من حيث المرتكزات الأساسية وتختلف من حيث التعاطي مع هذه المرتكزات، إضافة إلى تركيز بعض المذاهب والاتجاهات الفكرية على قضية محورية نظراً لأنها تعالج مشكلة ملحَّة في وقتها، بينما لا تركِّز على بعض القضايا الأخرى التي قد تكون مسلَّمة في عموم الاتجاهات الفكرية المعاصرة.

وإذا كانت الاتجاهات الفكرية المعاصرة تهتم بدراسة المفاهيم الكلية ولا تدرس القضايا التفصيلية؛ فمن الطبيعي أن يشعر الدراس بالتداخل بين هذه الاتجاهات والنَزَعات، وهذا التداخل لا يعني بالضرورة التعدد، حيث تشترك كثير من الاتجاهات في بُنية فكرية واحدة، وقد نبَّه إلى هذا المفكر المصري عبد الرحمن بدوي(١) بقوله: "ويلاحظ كذلك أن المذاهب الفلسفية

(١) د. عبد الرحمن بدوي(١٩١٧-٢٠٠٢م) أحد أبرز أساتذة الفلسفة العرب في القرن العشرين وأغزرهم إنتاجاً، يتقن عدة لغات أوروبية بالإضافة إلى اللغة العربية، عمل أستاذاً زائراً في عدد من الجامعات العربية والأوروبية.

ليست من التعدد كما يوهم الشُّكاك وخصوم الفلسفة، بحيث يقولون إنه بقدر ما هناك من رؤوس هنالك مذاهب فلسفية، إذ الواضح من اســتقراء تــاريخ الفلسفة أن ثَم أنماطاً عامة للتفكير الفلسفي تتجدد على مدى تاريخ الفلســفة.. حتى يمكن أن تُعدَّ مختلف المذاهب الفلسفية علــى مــدى التــاريخ مجــرد تنوعيات على هذه المقاصد الأساسية"(١) وعلى هــذا فــإن الــدارس فــي الاتجاهات الفكرية المعاصرة لا بد أن يدرك مدى التداخل في الأفكار الكلية للمذاهب والاتجاهات المعاصرة، وليس من المنهجية العلمية المعتبرة تنــاول هذه الاتجاهات كجُزر منفصلة لا يربط بينمها رابط، أو لا يوجــد بينهمــا اشتراك، فطبيعة الأفكار الإنسانية بشكل عام هي الاشتراك والتداخل.

وهذا البحث المختصر يلقي الضوء على هذا التداخل في الاتجاهــات الفكرية المعاصرة من خلال استعراض النزعة المادية والعقلانية في الفكــر الغربي، وأنها قائمة على أفكار مشتركة، وعند التعاطي معها لا ينبغي أخذها كجزر منفصلة وأن كل اتجاه لا يمت للاتجاه الآخر بصلة، وإنما دراستها مع استحضار نقاط الاشتراك والتداخل بينها، وأنها كأغصان الشجرة العظيمــة التي تتفق بعضها مع بعض في الجذع والجذور، وإن كانت تختلف فيما بينها في الفروع والأغصان.

(١) انظر مدخل جديد إلى الفلسفة، عبد الرحمن بدوي ص٦٣.

وقد سار البحث على الخطة التالية:

المبحث الأول: المادية

المطلب الأول: مفهوم المادية

المطلب الثاني: المادية جزء من النظام المعرفي في الفكر الغربي

المبحث الثاني: العقلانية

المطلب الأول: مفهوم العقلانية

المطلب الثاني: العقلانية جزء من النظام المعرفي في الفكر الغربي

المبحث الثالث: التداخل بين المادية والعقلانية

المطلب الأول: التدخل على مستوى مصطلحات المادية

المطلب الثاني: التداخل على مستوى مصطلحات العقلانية

المطلب الثالث: التداخل بين المادية والعقلانية كأدوات منتجة للمعرفة في الفكر الغربي

المحور الأول: كيف تعمل العقلانية في إنتاج المعرفة (موقف العقل من المادة)

المحور الثاني: كيف تعمل المادية في إنتاج المعرفة (موقف المادة من العقل)

والله أسأل أن يكون هذا العمل خالصاً لوجه، إنه سميع قريب مجيب،،،

المبحث الأول: المادية

تعتبر المادية من أهم الأسس العامة للفكر الغربي، ولا يوجد مذهب من المذاهب الفكرية المعاصرة إلا وينطلق من إحدى منطلقاته الأساسية، ويمكن أن نصنِّفها بالجذع الرئيس الذي تتفرع عنه الفروع والأغصان الأخرى.

وقد كانت المعارف العامة في العصور الأوروبية الوسطى تستمد ينابيعها من الدين ومن تفاسير الكنيسة للكتاب المقدس، سواء كانت هذه المعارف طبيعية كعلوم الطبيعة وما يلتحق بها، أو علوم الفلك وأنظمة الأجرام السماوية وما يلتحق بها، أو حتى العلوم السياسية والاقتصادية، إضافة إلى الأخلاق والقيم، كل ذلك مرجعه إلى الدين فحسب، ولذلك وقفت الكنسية بصرامة ضد أي اتجاه يحاول منافستها في أن يكون مصدراً للمعارف.

وبعد الإجهاز على الكنيسة؛ فإن المعارف المادية هي البديل الجاهز لاعتمادها مصدراً للمعرفة بديلاً عن الدين لأن الدين يمثل المعرفة الماورائية أو الغيبية التي لا يمكن التحقق من صدقها لا بالتجربة ولا بالعقل ولا بغيرهما، وحينئذ أصبحت المعرفة المادية هي مصدر المعارف كلها، وهي التي سيصدر عنها العقل الأوروبي ليشكِّل حضارته ورؤيته للكون والإنسان، ويدير حياته ويشرِّع دساتيره بعيداً عن أي مصدر غيبي ماورائي ديني. وإنما المصدر الحقيقي هو المصدر المادي المستمد من التجربة الحسيَّة فقط. وإذا كانت المادية بهذه الأهمية المركزية في المذاهب الفكرية المعاصرة؛ فما مفهوم المادية، وما مركزيَّتها في نظام المعرفة في الفكر الغربي، وما تأثيرها على القيم والأخلاق، وهذا ما سيجيب عنه المطلبان التاليان:

المطلب الأول: مفهوم المادية

جاء مفهوم المادية في المعاجم الفلسفية كما في المعجم الفلسفي: "المذهب المادي: هو المذهب الذي يُفسِّر كل شيء بالأسباب المادية"(١). وجاء في موسوعة لالاند الفلسفية عن المادية بصفتها إطاراً للمعرفة بأنها: "المعرفة التي تؤكد على المعطيات العينيَّة التي تشكِّل محتوى الفكر"(٢) أما في موسوعة الفلسفة لعبد الرحمن بدوي فالمادية في سياق نظرية المعرفة: هي "المعرفة التي ترد المعرفة إلى الحواس وحدها"(٣)، وهذه التعبيرات عن المادية كلها متقاربة، وكلها تؤكد على استبعاد أي مُحدِّد للمعرفة لا يقع في إطار المشاهد أو المحسوس أو لا يخضع للتجربة الحسية، ويعتبر هذا المفهوم هو المفهوم المتسيِّد على نظرية المعرفة في الفكر الأوروبي من عصر النهضة إلى هذا الوقت.

المطلب الثاني: المادية جزء من النظام المعرفي في الفكر الغربي

إن المادية على هذا الأساس السابق هي جزء من النظام المعرفي في عموم الفكر الغربي، فإذا كان الدين يُعطي تفسيراً لبعض الأشياء في الكون أو الإنسان أو المغيبات؛ فإن المعرفة المادية ترفض ذلك، ولا تقبل إلا بالمعرفة الصادرة من المادة أو أي شيء محسوس، ويفسر المفكر الفرنسي ريمون بودون(٤) هذا بقوله: "لم تعرف العلوم الطبيعية وعلوم الحياة والفيزياء والكيمياء الانتظام إلا عندما أثبتت على التوالي إمكان إبدال التفسيرات السالفة التي تتوفر على العلل الغائية بتفسير يربط الظاهرات الواقعة ضمن مجال اختصاصها بعللها المادية.. تلك هي حال العلوم

(١) المعجم الفلسفي، جميل صليبا ٣٠٩/٢.

(٢) موسوعة لالاند الفلسفية، لالاند ٧٧٢/٢.

(٣) موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي٤٠٧/٢.

(٤) ريمون بودون (١٩٣٤- ٢٠١٣م) مفكر فرنسي وعالم اجتماع وأستاذ في جامعة السوربون، وعضو في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية والأكاديميا الأوروبية، والجمعية الملكية الكندية والأمريكية والأرجنتينية. انظر أبحاث في النظرية العامة في العقلانية، ريمون بودون، صفحة الغلاف.

الطبيعية كلها، حيث إن علم الأرصاد الجوية لم يصبح علماً إلا منذ أن بدأ ينسب هطول الأمطار لا إلى إرادة القوى الروحية؛ بل إلى أسباب طبيعية"(١)، والنص السابق يبين أن الاتجاه المادي مهمته الأساسية هي إبعاد التفسيرات التي لا تخضع لقوانين المادة كالتفسيرات الدينية أو الغيبية المعتمدة على الدين أو أي تفسير غائي غير إطار الحس والمادة، ولتوضيح (المادية) بشكل أكثر بصفتها أساساً فكرياً من أصول الفكر الغربي؛ نذكر هنا ما ذكره المفكر الأمريكي هنتر ميد(٢) حول الاتجاه المادي في المعرفة بقوله: "المذهب المادي أو الطبيعي هو في أساسه الاعتقاد بأن العالم الطبيعي أو الواقعي -أي عالم التجربة البشرية- هو المجال الوحيد الذي يمكننا أو يجب علينا أن نهتم به، وهذا التحديد لم يوضع اعتباطاً، إذ أن العالم الطبيعي هو الذي رسم حدود بحثنا، نظراً إلى كونه العالم الوحيد الذي تكشف لنا التجربة وجوده، ومن الواضح أن هذا الاعتقاد الأساسي في المذهب الطبيعي يعني آلياً رفض الاتجاه إلى العالم الآخر، والنزعة المتعالية أو فوق الطبيعية بكل صورها، فأي معرفة أو قيمة أو مثل لا يمكن إرجاعه إلى التجربة البشرية وإلى ما فيه صالح البشر؛ لا يمكن أن يكون له معنى في نظر المفكر المؤمن بالمذهب الطبيعي أو المادي"(٣). فإذا كانت الكنسية تقيم نظامها المعرفي على الكتاب المقدس وعلى تفسير آباء الكنيسة له سواء تعلق هذا بالمعارف المتعلقة بنظام الكون أو غيره؛ فإن الفلسفة المادية التجريبية، اتجهت في اتجاه آخر، وهو أن المعرفة الحقيقية لا بد أن يكون مدارها الحسَّ والتجربة -أي الشيء المادي الملموس- وهي بهذا تحدث قطيعة معرفية مع نظام الكنيسة المعرفي، وبما أن نظام الكنسية المعرفي لا يمكن

(١) انظر أبحاث في النظرية العامة في العقلانية، ريمون بودون ص٧٠.

(٢) هنتر ميد مفكر أمريكي حصل على درجة الدكتوراه من جامعة سترن كاليفورنيا عام ١٩٣٦م، ويعمل أستاذاً للفلسفة وعلم النفس في معهد كاليفورنيا التكنولوجي، كما أنه عضو في مجلس تحرير الكتاب السنوي لدائرة المعارف الأمريكية. انظر الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، هنتر ميد، صفحة الغلاف

(٣) الفلسفية أنواعها ومشكلاتها، هنتر ميد ص٨١.

أن يقوم على الحسّ، وإنما هو قائم في الأساس على الكتاب المقدس الذي هو داخل ضمن دائرة الوحي، فإنه سيُنظر إليه -من وجهة النظر المادية- بأنه خارج مفهوم العلم المعتبر، لأنه لا يمكن أن يخضع للتجربة الحسية، ومن هذه اللحظة بالذات؛ فإن الفلسفة المادية التجريبية -وهي من أوائل الفلسفات الغربية التي خرجت عن منهج الكنيسة في الفهم واستخراج المعارف[١]- بتدشينها لمنهجها المعرفي القائم على التجربة والحس؛ فإنها سحبت البساط من تحت الكنسية، ووجهت أنظار المجتمع إلى عالم الطبيعة بما أنه العالَم الذي يقبل إجراء التجربة الحسية عليه؛ للخروج بنتائج علمية ملموسة، وفي المقابل صرفت الناس عن الكتاب المقدس وعن علوم الوحي.

وإذا كان ما سبق يبين كيف تتم المعرفة بمنزعها المادي التجريبي الحسيّ؛ فإن جانب الأخلاق والقيم هو جزء من المنظومة نفسها، فإذا كان للدين دور في الحكم على القيم والأخلاق من ناحية حسنها أو قبحها، فإن اتجاه النزعة المادية يستبعد ذلك تماماً بما أن الدين غير محسوس، وقد جاء في المعجم الفلسفي الإشارة إلى ذلك بأن: "المذهب المادي في علم الأخلاق هو القول أن غاية الحياة هي الاستمتاع بالخيرات المادية وحدها"[٢]، ولذلك فإن الأخلاق والقيم في الفكر الغربي أخلاق مادية، لا تعترف بأي أخلاق أو قيم يكون القصد منها غائياً أو ما ورائياً أو غير محسوس، وهذا يفسر إقبال المجتمع الغربي المنطلق من المنطلقات المادية على تقييم الأفعال والأغراض والمتعة بما تحققه من مكاسب مادية محسوسة وملموسة.

إن المعرفة المادية المستندة إلى التجربة والحسّ؛ هي المعرفة المعترف بها في الفكر الغربي الحديث، وهي أصل المعارف ومنها تتفرع المعارف الثانوية الأخرى، وعند الاطلاع السريع على مجمل الاتجاهات

(١) يعتبر الفيلسوف الإنجليزي فرانسيس بيكون (١٥٦١ – ١٦٢٦م) أول من دشّن الفلسفة التجريبية كنظام للمعرفة، واستمرت هذه المدرسة بعده على يد الفيلسوف الإنجليزي جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤م) وغيره حتى العصر الحاضر والمتمثل في الاتجاه البرجماتي. انظر في الفلسفة التجريبية بشكل مختصر: قصة الفلسفة الحديثة، أحمد أمين وزكي نجيب محمود ١/٥٠.

(٢) المعجم الفلسفي، جميل صليبا ٢/٣٠٩.

الفكرية المعاصرة التي تشكَّلت في الفضاء الأوروبي الحديث -على اختلاف فيما بينها لا من حيث أسباب نشأتها ولا من حيث بنيتها التركيبية، ولا من حيث أغراضها وما تركِّز عليه وما تهدف إلى معالجته أو حل مشكلته- كلها تشترك في هذا الجذع الرئيس وهو المعرفة المادية، بحيث إن كل هذه المذاهب تنطلق في تأسيسها على المعارف المادية الخاضعة للتجربة والحسّ، وتستبعد أي معرفة خارج هذا الإطار سواء كانت معارف صادرة عن الدين أو أي مصدر آخر غير مادي أو غير محسوس.

ويمكن أن نلخص المرتكزات الأساسية حول المادية بصفتها أصلاً مهماً من أصول المذاهب الفكرية المعاصرة بما ذكره المفكر المصري عبد الوهاب المسيري بقوله(١):

- المادية تؤمن بأن الطبيعة بأسرها خاضعة لقوانين واحدة ثابتة منتظمة صارمة حتمية مطردة وآليَّة وبأنها لا تقبل أي خصوصيات.
- المادية تعني أن العلم المادي لا يؤمن بوجود غائيَّة في العالم المادي.
- الإيمان بأنه لا يوجد غيبيات أو تجاوز للنظام الطبيعي من أي نوع، فالطبيعية تحوي في داخلها كل القوانين التي تتحكم فيها وكل ما نحتاج إليه لتفسيرها.
- تفسر المادية الأخلاق تفسيراً مادياً ووفقاً لقانون طبيعي، ولذلك تنادي المذاهب الأخلاقية المادية بأن الشيء الوحيد الذي يجدر بالإنسان أن يسعى إليه هو الخيرات المادية التي تجود بها الحياة.

ومن خلال ما سبق فإن ظهور الفلسفة المادية الحسية التجريبية وانتشارها ساعد في الابتعاد عن قبول المعرفة الصادرة عن الكنيسة، ومن ثم عدم الاهتمام بالعلوم الدينية، مما جعل الأنظار تتجه إلى عالم الطبيعة، والاستغناء عن المعارف التي تنتجها المؤسسات الدينية.

---

(١) انظر الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري ص١٥.

المبحث الثاني: العقلانية

إن العقلانية لا تقل أهمية عن المادية وممكن القول: "إن المادية والعقلانية هما وجها المذاهب المعاصرة" حيث تعتبر العقلانية أساساً فكرياً تشترك فيه كل المذاهب الفكرية المعاصرة، وتختلف في اتجاهاتها، بحيث إن كل المذاهب الفكرية تنطلق من مبدأ العقلانية وتختلف في بنائها الفكري اختلافاً يصل إلى التعارض أحياناً، لكن الجامع بينها هو الانطلاق من العقلانية، حيث تعتبر العقلانية جوهر الفكر الغربي، ومن هنا تأتي أهميتها باعتبارها الخطوة الأهم في نظرية المعرفة في الفكر الغربي، وسيكون الحديث عن العقلانية من خلال المطلبين التاليين:

المطلب الأول: مفهوم العقلانية

كما سبق الحديث عنه في المادية وكيف أنها كانت أساساً فكرياً في المذاهب الفكرية المعاصرة، وهي منهج في تحصيل المعرفة؛ فإن العقلانية هي قسيم للمادية كذلك، وعندما نتحول إلى الحديث عن مفهوم العقلانية؛ فإن هناك معانيَ عدَّة للعقل في الفلسفة القديمة والحديثة[١]، ولكن هذا لا يهمنا بدرجة كافية، وإنما الذي يهمنا هو العقلانية في الاستخدام الحديث وفي الفكر الغربي على وجه التحديد، حيث يعود مصطلح (عقلانية) إلى القرن السابع عشر حسب موسوعة لالاند الفلسفية [٢]، ويدور في مجملها على اعتبار العقل محور المعرفة والتلقي في كل المعارف دون استثناء، وقد عبَّر عنها المفكر الفرنسي إدغار موارن[٣] بأنها: "رؤية للعالم تُقصي من الواقع كل ما ليس عقلياً، وكل ما ليس ذا طابع عقلي"[٤]، والعقلانية في جوهرها تعوِّل

---

(١) انظر على سبيل المثال: المعجم الفلسفي، جميل صليبا ٨٤/٢

(٢) انظر موسوعة لالاند الفلسفية ١١٧٢/٣.

(٣) إدغار موران عالم اجتماع فرنسي معاصر، ولد في باريس عام ١٩٢١م.

(٤) العقل والعقلانية نصوص فلسفية، ترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي ص٧. وانظر أيضاً: الفلسفة موضوعات مفتاحية ص٣٤.

على المنطق والعقل بصفتهما كاشفين للمعرفة، وهو ما أوضحه المفكر البريطاني جوليان باجيني[١] بقوله: "يعتقد أصحاب المذهب العقلي أن الطريقة للحصول على المعرفة هي التعويل على موارد المنطق والعقل، وهذا النوع من التفكير لا يعتمد على معطيات الخبرة، بل ينطلق من الحقائق الأساسية التي يتطلب أن تكون موجودة وليست نابعة من الخبرة"[٢]، أي العقل هنا يمثل نقطة مركزية تتمحور حولها الأدوات المنطقية والتحليلية التي من خلالها تتشكَّل المعارف.

المطلب الثاني: العقلانية جزء من النظام المعرفي في الفكر الغربي

إذا كانت المادية تعتبر جزءً من النظام المعرفي في المذاهب والاتجاهات الفكرية المعاصرة؛ فإن العقلانية هي جزء مكمِّل للمادية، حيث تعمل المادية والعقلانية بصفة متكاملة لتحقيق الرؤية العامة للمذاهب الفكرية ومنطلقاتها ونهاياتها، والمعرفة التي تخضع للشروط العقلانية -كما هي المادية- ليست معرفة محصورة بحقول معينة؛ بل هي شاملة لكل المعارف سواء كانت هذه المعرفة عن الإنسان أو الكون أو الواقع، وهذا ما أوضحه جون كوتنغهام[٣] بقوله: "يُنشئ العقلانيون الزعم اللافت للنظر أننا نستطيع بنور العقل أن نصل بمعزل عن التجربة إلى معرفة بعض الحقائق المهمة والأساسية عن الواقع، عن طبيعة المذهب البشري، وعن طبيعة الكون، وما يشتمل عليه.. كما يؤكد كل العقلانيين إمكانية المعرفة القبلية تأكيداً مميزاً، وهي تُعرَّف في بعض الأحيان بأنها المعرفة التي تُمتلك قبل التجربة"[٤] كما

---

(١) جوليان باجيني مفكر بريطاني معاصر ولد ١٩٦٨م في فولكستون، حصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٩٦م من جامعة لندن عن أطروحة عن فلسفة الهوية الشخصية.

(٢) الفلسفة موضوعات مفتاحية، جوليان باجيني ص٣٠.

(٣) جون كوتنغهام مفكر إنجليزي معاصر حصل على الدكتوراه من جامعة أكسفورد، درَّس في أمريكا وفي بريطانيا، وأسهم في العديد من المجالات الفلسفية. انظر العقلانية فلسفة متجددة، جون كوتنغهام، صفحة الغلاف.

(٤) العقلانية فلسفة متجددة، جون كوتنغهام ص١٧. وانظر أيضاً: انظر مبادئ الفلسفة، أ.س. رابوبرت ص١٢٤

يوضح المفكر الأمريكي هنتر ميد اتساع الحقول التي تغطيها المعرفة العقلانية بقوله: "إننا إذا شئنا أن نكتسب بشكل واضح طبيعة الواقع؛ فليزم علينا ألا نبحث في العلوم الفيزيائية بما فيه من اهتمام بالمادة والحركة والقوة وما إلى ذلك، بل من واجبنا أن نتجه إلى الفكر والعقل، وليس معنى ذلك أن الصور التي يقدمها لنا العلم عن العالم فيها شيء من الخطأ، بل من الجائز أنها صحيحة جداً غير أنها ناقصة، فالعقلانية ترى أن العقل هو مصدر كل معنى وقيمة. وكل مذهب لا يجعل العقل دعامة أساسية فهو يقدم صورة ناقصة عن الحقيقة"(١).

ويمكن أن نختم هذا المحور في النظام العقلاني للمعرفة بالتأكيد على أن العقلانية في سياق الفكر الغربي وخصوصاً التي نشأت في أوروبا لا تعني استخدام العقل في الوصول إلى المعارف؛ فإن هذا أمرٌ مشروع؛ وإنما تعني استقلال العقل في الحصول على المعرفة المتكاملة بما فيها المعرفة الدينية، وعلى هذا فالعقلانية ليست مذهباً بل هي أشبه بمنهج في التفكير يعتبر العقل مركزياً في حصول المعارف بشكل عام.

وإذا كانت العقلانية تعني استقلال العقل بالمعرفة؛ فإن هناك معنى لا بد من التأكيد عليه هنا، وهو استخدام العقل في مقابل الوحي، أو العقلانية في مقابل النزعة الإيمانية التي تستمد معارفها من الوحي، وقد وصف ذلك المؤرخ الأمريكي كرين برينتون(٢) ذلك بقوله: "وتعتبر النزعة العقلانية بالصورة التي نمت بها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر في الغرب نسقاً ميتافيزيقياً كاملاً، بل وأكثر من هذا؛ إنها كانت وما زالت بالنسبة لقليل من الناس البديل للدين"(٣) أي إن العقلانية هي جزء من نظام المعرفة

(١) انظر الفلسفة ومشكلاتها، هنتر ميد ص٥٨.

(٢) كرين برينتون (١٨٩٨-١٩٦٨م) مفكر أمريكي، درّس في جامعتي هارفرد وأكسفورد،، وشغل وظيفة أستاذ التاريخ القديم بجامعة هارفرد، وعضواً في عدد من الهيئات والجمعيات العلمية الأمريكية.

(٣) تشكيل العقل الحديث، كرين برينتون ص١٢١.

المتكامل في المذاهب والاتجاهات الفكرية المعاصرة، بل حتى المعارف الدينية لا يمكن قبولها إلا بعد أن تجتاز قنطرة العقل، وقد جاءت الإشارة إلى هذا المعنى في موسوعة لالاند بقوله: "العقلانية: مذهب يرى أنه لا يجوز الوثوق إلا بالعقل، ولا يجوز التسليم في المذاهب الدينية إلا بما يعترف به العقل بأنه منطقي"[١]، فالدين نفسه على هذا الاعتبار لا يُقبل منه إلا ما صادق العقل عليه.

(١) انظر موسوعة لالاند الفلسفية ١١٧٢/٣.

المبحث الثالث: التداخل بين المادية والعقلانية

المطلب الأول: التدخل على مستوى مصطلحات المادية

هناك عدة اتجاهات فكرية معاصرة تجتمع كلها في المادية –تقريباً– "فالتجريبية" و "الواقعية" و"الطبيعيَّة" و "الحسيَّة" كلها تلتقي في موضوع واحد وهو (المادية) أي المعرفة المنطلقة من أساس مادي، في مقابل المعرفة المنطلقة من أساس غيبي أو ماورائي أو روحي أو ديني أو ما يرادف هذه المعاني. إذن فمن الممكن أن نقول إن المادية اتجاه تجتمع فيه كل هذه الاتجاهات المتداخلة، ويتعاطى الباحثون مع هذه المصطلحات كما تتعاطى القواميس الفلسفية مع هذه المصطلحات أيضاً بتداخل يُشير إلى معنى كليٍّ وهو ما نختصره نحن هنا في المادية، وقد أشار إلى هذا المعنى المتداخل المفكر البولندي بوشنسكي(١) عند حديثه عن المادية بقوله: "تجمع تحت هذه التسمية العامة عدة مذاهب فلسفية من اتجاهات مختلفة..كل الفلاسفة الذين ينتمون إلى هذه المجموعة طبيعيون، وهم أيضاً عِلميُّون بدرجة تزيد أو تقل، وهم طبيعيون لأنهم لا يرون في الإنسان إلا جزءً من كلٍّ، هو الطبيعية، وينكرون بصفة عامة أن يكون الإنسان كائناً مميزاً على الكائنات الطبيعية الأخرى، وهم تجريبيون أيضاً بسبب اعتقادهم المطلق في السلطة العليا التي تمتاز بها العلوم الطبيعية، وعلى ذلك فهم يرون أن الواقع لا يمكن إدراكه إلا بمناهج العلوم الطبيعية، ومالا تدركه تلك المناهج لا يكون إلا مشكلة زائفة، ولا يكون له بالنتيجة مغزى أو أهمية، كذلك فإنهم ينكرون أن تكون النتيجة الأخلاقية أو الجمالية أو الدينية مصدراً للمعرفة، فالفلسفة في رأي مفكري هذه المجموعة باعتبارهم تجريبيين تنحصر وحسب في تحليل مفاهيم

---

(١) إ.م. بوشنسكي ولد عام ١٩٠٤م، وهو رجل دين كاثوليكي من أصل بولندي، عمل أستاذاً في جامعة فرايبورج في سويسرا. انظر الفلسفة المعاصرة في أوروبا، إ.م. بوشنسكي، صفحة الغلاف.

العلم الطبيعي، أو في إجراء تركيب عام لنتائج العلوم الطبيعية، وفيما عدا هذا وذاك فإنها بغير وظيفة"(١).

إن النص السابق يشير إلى أن المادية ليست مفهوماً منحصراً على هذه البُنية الاصطلاحية، بل إن معنى هذا المصطلح وأدواته يشمل عدة مصطلحات عاملة في مجال نظرية المعرفة في الفكر الغربي كالطبيعية والتجريبية والحسية وغيرها، وكلها تجتمع في المادية. وعلى هذا فإن تداول مصطلح التجريبية أو الحسية أو الطبيعية؛ لا تعني أنها شيء مختلف تماماً عن المادية بل إنها معنى من معاني المادية بتعبير آخر، فقد تبتعد قليلاً أو تقترب قليلاً، لكنها في العموم هي مفاهيم تعني حقيقة واحدة، هي الحقيقة المادية.

المطلب الثاني: التداخل على مستوى مصطلحات العقلانية

عندما نرجع إلى قسيم المادية -الذي هو العقلانية- فإن هناك عدَّة مصطلحات استخدمها الباحثون والمفكرون للتعبير عن هذا الاتجاه كلها تقف في المقابل من المادية، فقد أسماها البعض: مثالية، أو ذاتية، أو عقلانية، وهو الأشهر -وهو الذي نستخدمه هنا في هذا البحث- وكل هذه المصطلحات تلتقي في معانٍ مشتركة، فعلى سبيل المثال فإن المفكر الأمريكي هنتر ميد لما تكلم عن المثالية قال: "إذا تجاهلنا كل المدارس الفرعية المتباينة وأرجعنا المثالية إلى ماهيتها الأصلية؛.. فالمثالية ترى أننا إذا شئنا أن نكتسب أوضح تبصُّر بطبيعة الواقع.. فمن واجبنا أن نتَّجه إلى الفكر والعقل"(٢) وفي المعجم الفلسفي لجميل صليبا قوله: "والمثالية هي التي تقرر أن معرفتنا تنحصر في الأفكار دون الأشياء"(٣)، بل إن بعض القواميس

(١) انظر الفلسفة المعاصرة في أوروبا، إ.م. بوشنسكي ص٦٩.

(٢) انظر الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، هنتر ميد ص٥٨.

(٣) موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي ٤٣٩/٢. وانظر أيضاً: المعجم الفلسفي، جميل صليبا ٣٣٦/٢، المعجم الفلسفي، مصطفى حسيبة ص٥٨١.

الفلسفية أشارت إلى ديكارت في موضوع المثالية، ومعروف أن ديكارت هو مؤسس المدرسة العقلية، كما جاء في المعجم الفلسفي لمراد وهبة قوله: "تقصر لفظ المثالية على النسبة إلى نظرية أفلاطون في المثل والنسبة إلى المثل الأعلى، وأن نقول تصورية للدلالة على المذهب الذي ابتدعه ديكارت وتابعة عليه الفلاسفة المحدثون"(١).

أما الذاتية فقد جاء في بعض القواميس الفلسفية الإشارة إلى تناول معاني العقلانية بضمون معاني الذاتية، كما جاء في معجم المصطلحات والشواهد قوله: "الذاتية: ما يخص العقل البشري في مقابل الأشياء في ذاتها، أو ما يخص الذات المدركة والعارفة في مقابل الفلسفة الموضوعية التي تبني نظرياتها على حقائق العلم"(٢).

وما يهمنا هنا ليس التفريق الدقيق بين هذه المصطلحات، لأنها كلها تتداول في المراجع العلمية المعتبرة بمعنى متداخل، وكلها تقريباً تعني الاتجاه المقابل للمادي وللماورائي. والذي يهمنا بالذات أن معاني مصطلح العقلانية متداخل مع غيره من المصطلحات وغالباها تتداول في الموسوعات الفلسفية والمراجع الفلسفية بمعنى متقارب ومتداخل.

---

(١) المعجم الفلسفي، مراد وهبة ص٥٧٢

(٢) معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، جلال الدين سعد ص٢٠٦.

المطلب الثالث: التداخل بين المادية والعقلانية كأدوات منتجة للمعرفة في الفكر الغربي

كان ما سبق يعتبر تصويراً للمادية والعقلانية كآليتين منتجتان للمعرفة في الفكر الغربي، وهما الاتجاهان الأكثر حضوراً كاتجاهين رئيسين للمعرفة كما وصفهما المفكر الفرنسي جورج بوليتزر(١) بقوله: "هناك موقفان اثنان تبناهما الفلاسفة عبر تاريخ الإنسانية لتفسير العالم: الأول: لا علمي، يستعين بروح أو بعدَّة أرواح عليا لقوى فوق طبيعية. والآخر: علمي يرتكز على الوقائع والتجارب. ولقد دافع الفلاسفة المثاليون عن أحد هذين التصورين، وعن الآخر دافع الماديون"(٢). وإذا كان ما سبق حول المادية والعقلانية وكيف أنها تشكِّل أسساً فلسفية في منهجية المعرفة في الفكر الغربي؛ فإن ذلك لا يعني أن نتداول المادية والعقلانية كمنظومتين منفصلتين أو كمنهجين مستقلين عن بعضهما في التفكير الغربي، فإن هذا –عند التحقيق– لا وجود له، وإنما الموجود هو شبكة من التداخلات بين المادية والعقلانية تشكِّل في مجموعها منظومة مركبة، أو مفهوم متجمِّع –إن صحَّت التسمية– لمنهجية المعرفة في الفكر الغربي.

إن تداول المادية والعقلانية في عموم الدراسات الغربية ينتهي إلى هذا التداخل، وأنه لا يمكن بحال تكوين معرفة عقلية محضة دون المرور على مفاصل مادية، وفي المقابل لا يمكن تكوين معرفة مادية محضة دون أن يكون خلفها جهاز عقلي ينظِّمها. وهذا بالضبط هو لبُّ التداخل، وأنه

(١) جورج بوليتزر (١٩٠٣-١٩٤٢م) مفكر فرنسي ولد في هنغاريا، ثم انتقل إلى باريس، ودرس في السوربون، أسس مع مجموعة من زملائه عدة مجلات، كما أسس مركز التوثيق التابع للحزب الشيوعي الفرنسي وأشرف عليه، كما ساهم في تأسس الجامعة العمالية ودرس فيها. انظر مبادئ أولية في الفلسفة، جورج بوليتزر، صفحة الغلاف.

(٢) انظر مبادئ أولية في الفلسفة، جورج بوليتزر ص٤٤.

للتعاطي مع المادية والعقلانية كآليتين من آليات إنتاج المعرفة في الفكر الغربي لابد من استحضار هذا التداخل.

وقد بين عبد الوهاب المسيري هذا التداخل بقوله: "إن الرؤية العقلانية المادية تستند إلى افتراض وجود عقل مستقل قادر على إدراك ما نسميه الكل المادي الثابت المتجاوز لهذا الهدف، فلو أن العقل قادر على الإدراك بمفرده، دون أن يكون هناك كليات في الواقع لأدرك جزئيات ولما أمكنه أن يؤسس منظومات معرفية وأخلاقية عقلانية، والعكس صحيح أيضاً، فلو أن الواقع هو هذا الكل المادي الثابت المتماسك المتجاوز ذي الغرض ولا يوجد عقل يدركه، فإنه لا يمكن أن تنشأ منظومات معرفية وأخلاقية عقلانية بمفردها"(١) إن المسيري هنا يوضح هذا التداخل بدقة.

ولكن كيف يتم فهم النصوص المؤسِّسة للفصل التام بين المادية والعقلانية كأساسين منتجين للمعرفة؟ إن هناك نصوصاً في الفلسفة الغربية تصور أن العلاقة بين المادية والعقلانية أشبه بعلاقة تضاد كما يقول غنار سكيربك و نلز غيلجي: "إن الفلاسفة العقلانيين يعتقدون أننا نستطيع إدراك الواقع بواسطة التصورات وحدها، بينما يرد الفلاسفة التجريبيون المعرفة إلى الخبرة"(٢)، ويقولان أيضاً: "ثمة إشكال آخر من التضاد بين العقلانيين والتجريبيين/الحسيين. وكلتا الحركتين نشدتا الوضوح، لكن نظريتهما إلى الوضوح كانتا مختلفتين. فالعقلانيون قالوا إن الواضح هو الواضح بذاته. وهنا يدخل الحدس العقلي، أي عندما يبدو شيء واضحاً تاماً كما لو أن وضوحه ذاتي. بحسب ذلك الحدس فإن ما يقوله ذلك الحدس لنا هو صدق. أما التجريبيون الحسِّيون فقد نشدوا الواضح بمعنى لا يمكن ملاحظته، ويمكن

(١) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري ص٣٠.

(٢) تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، غنار سكيربك و نلز غيلجي ص٥٠٧

فحصه تجريبياً وبمعنى انسجامه مع الاستعمال اللغوي العادي"(١)، ولكن هذا النص وأمثاله لا يعني بذلك انفصال المنهجين عن بعضهما، إلا على مستوى التصوير الذهني، وإلا فإنه في أثناء الإعمال والاشتغال يبدو هذا متعــذراً، وإنما هو أشبه بتحديد مناط المركزية في المنهج؛ هل هو النواة الحســية أو النواة العقلية، وهذا ما أكد عليه كثير من الباحثين في أن العقلانية لا تنحِّــي المادية تماماً، وفي المقابل فإن المادية لا تقصي العقلانية تماماً، فالعقلانيــة على سبيل المثل لا تنكر دور الحواس في تحصــيل المعرفــة، واللحظــة التعميمية التي تطلقها المادية هي عقلية من وجهة آخر، وهذا ما أكد عليــه المفكر لفرنسي روجيه جارودي حيث يقول: "إن المادية الديالكتيكية تعارض مرة واحدة الصفة وحيدة الطرف بالمذهبين العقلاني والتجريبي؛ فليس ثمــة فكر منطقي لا يؤسس على التجربة الحسية، وبالمقابل فإن المعرفة الحســية تحمل في ذاتها إمكانية التعميم التي ستتفتح في المفهوم. فاللحظة التجريبيــة واللحظة العقلانية للمعرفة تشكلان كلاً"(٢)، كما أن هناك من الدراسين للفكر الغربي من يتعاطى مع المادية والعقلانية بهذا الشكل من التداخل كالكاتــب الفلسطيني راجح الكردي على سبيل المثال، حيث يقــول: "أمــا العقليــون فلا ينكرون وجود الحواس وأن لها دوراً ما في المعرفة. ولكــنهم يأخــذون على التجريبيين اعتمادهم التام عليها طريقاً للمعرفة، ثم يخالفونهم في اعتبار العقل محصوراً في مهمة الحواس، ويقول العقليون: إن التجربة التي تحصل بوساطة الحواس مضللة موهمة.. وهذا لا يعني إنكار دور الحواس نهائياً في المعرفة، ولكن العقل أساس الحواس، وموجه للإدراك الحسي"(٣).

---

(١) تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، غنار سكيربك و نلز غيلجي ص٥١٠.
(٢) النظرية المادية في المعرفة، روجيه جارودي ص٢٥٩.
(٣) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، راجح الكردي ص٥٨٣، ٥٨٤.

ولأجل تفصيل أكثر في موضوع التداخل فإننا سنأخذ الموضوع من جهتين؛ الأولى: موقف العقل من المادة. والثانية: موقف المادة من العقل. وتفصيل ذلك من خلال المحورين التاليين.

المحور الأول: كيف تعمل العقلانية في إنتاج المعرفة (موقف العقل من المادة)

هل ممكن أن نحدد العقلانية دون أن نكون قد دخلنا تلقائياً في المباحث المادية، إن غاستون باشلار[1] يؤكد أنه لا يمكن ذلك حيث يقول: "العقلانية فلسفة لا بداية لها، إن العقلانية من مستوى الاستئناف، عندما نصل إلى تحديدها في إحدى عملياتها تكون قد استأنفت عملها منذ زمن طويل، إنها ضمير معرفة مصححة، معرفة تحمل علامة الفعل الإنساني، الفعل المتبصر، الجاد. ليس للعقلانية أن تنظر إلى العالم إلا كمبحث للتقدم الإنساني، بعبارات التقدم المعرفي"[2] ويقول أيضاً: "ليس ثمة عقل ثابت يحكم جميع أنماط معرفتنا، فالعقل نتيجة من نتائج العلم، وهو إنشاء لاحق غايته الإفصاح عن المناهج العلمية"[3]، فالعقل على هذا هو نتيجة العلم، والعلم في عرف الفكر الغربي هو العلم الطبيعي، وهو ما صادقت عليه التجربة.

وعند الحديث عن العلم في الفكر الغربي؛ فإننا نقترب أكثر من وجه التداخل بين العقلانية والمادية في تحديد ما هو المعقول بالضبط، حيث ترى العقلانية أن المعقول هو الذي يخضع لقوانين المادة، وما لا يخضع فهو غير معقول، وهي بهذه تلتقي مع المادية باستبعاد أي معرفة خارج قوانين الطبيعة

(١) غاستون باشلار (١٨٨٤ – ١٩٦٢م) فيلسوف فرنسي، يعتبر من أهم الفلاسفة الذي قدوا أفكاراً مركزية في نظريات المعرفة الابستمولوجيا، كما يعتبر من رواد فلسفة العلوم في العصر الحديث.

(٢) العقلانية التطبيقية، غاستون باشلار ص٢٢٠.

(٣) العقلانية التطبيقية، غاستون باشلار ص٩.

مهما كان مصدرها، وهذا الذي أكد عليه المفكر الأمريكي كرين بريتون بقوله: "المفكر العقلاني يميل إلى الموقف القائل بأن المعقول هو الطبيعي ولا وجود لشيء خارق للطبيعة، وأقصى ما يعرف به هو المجهول الذي قد يصبح يوماً ما معلوماً، ولا مكان في مخططه الفكري لقوى خارقة، ولا محل في عقله للاستسلام الغيبي لعقيدة ما"(١) ويقول أيضاً: "وهكذا تنزع العقلانية إلى إسقاط كل ما هو خارق للطبيعة أو غيبي من الكون، وأبقت فقط على الطبيعي الذي يؤمن المفكر العقلاني أنه قابل للفهم في النهاية، وأن سبيلنا إلى فهمه في الغالب الأعم الوسائل التي يعرفها أكثرنا باسم مناهج البحث العلمي"(٢).

وعندما نأتي إلى دور العقل أو موقفه من المادة؛ فإن العقل هو الذي يُرتِّب المعطيات المادية المحسوسة، كما يقول عبد الوهاب المسيري: "فنظرية المعرفة في مراحلها الأولى تقر بإمكانية قيام المعرفة، فالعالم قابل لأن يُعرف لأنه معطى لإحساسنا ووعينا، بل إن مادية العالم هي شرط لمعرفته، ولمعرفة هذا العالم لا يحتاج الإنسان إلى استعارة وسائل من خارج عالم الطبيعة، المادة. فهناك أولاً حواسه الخمس التي ترصد المحسوسات، وهناك عقله الذي يُرتِّب ويُركب المحسوسات، ولكنه ليس منفصلا عن الوجود المادي الحسي"(٣).

فالشرط الموضوعي للعقلانية هو أن تكون مطبوعة بالمحسوسات، فالعقل من حيث هو غريزة وقوة لا بد أن يتعلق بموضوع حتى يمارس عملياته الإدراكية، ومن ثم يخرج بالتصورات والقواعد العقلية، ولا يمكن أن يتم ذلك إلا من خلال معطيات حسية يتعلق بها، وهذا لا يعني أن العقل غير

---

(١) تشكيل العقل الحديث، كرين برينتون ص١٢٠.
(٢) تشكيل العقل الحديث، كرين برينتون ص١٢٠.
(٣) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري ص١٧.

قادر على أخذ الأشياء بشكل مجرد والتعاطي معها على شكل مجردات ذهنية غير محسوسة أو مادية.

ويوضح المسيري ذلك أكثر بقوله: "إن الرؤية العقلانية المادية تستند إلى افتراض وجود عقل مستقل قادر على إدراك ما نسميه الكل المادي الثابت المتجاوز لهذا الهدف، فلو أن العقل قادر على الإدراك بمفرده، دون أن يكون هناك كليات في الواقع لأدرك جزئيات ولما أمكنه أن يؤسس منظومات معرفية وأخلاقية عقلانية"(١)، وأما الباحث راجح الكردي فيرى أن العقل هو الذي يردم الهوة بين الذات العارفة والشيء المعروف فهو أشبه بالوسيط الموجه للمادة حيث يقول: "أما موقف العقليين من إمكان المعرفة فهو بالإيجاب، إذ أننا يقيناً يمكننا أن نصل إلى المعرفة، وأن الذي يسد الفجوة بين الذات العارفة والشيء المعروف هو العقل، وهو شيء معارض للإحساس"(٢).

فموقف العقل من المادة المحسوسة؛ هو تنظيمها وترتيبها، والخروج من هذا الترتيب والتنظيم إلى كلٍّ متماسك تُبنى عليه القوانين العقلية الضابطة للعالم المادي المحسوس.

والملفت للانتباه أن ديكارت وهو زعيم المدرسة العقلية حاول أن يقدم تصوراً هندسياً رياضياً للعالم، ولكن هذا التصور الرياضي الذي ارتضاه اضطره إلى نظرة ميكانيكية نوعاً ما في تفسير العالم الطبيعي، وهو ما ذكره عنه المفكر الأمريكي رونالد سترومبرج بقوله: "ولكي يعالج ديكارت العالم الفيزيائي؛ جعل منه عالماً ميكانيكياً خاضعاً تماماً للقوانين، وطهَّره تطهيراً كلياً من بقايا المذهب الحيوي الأرسطي، فكل شيء فيزيائي، بما في ذلك أجسام الأشياء الحية، ويجب أن يكون خاضعاً للقوانين الفيزيائية، ويقابل

(١) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري ص٣٠.

(٢) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، راجح الكردي ص١٣٠.

الشيء الفيزيائي عقل الإنسان العارف الذي ينشط ويعمل في ميدانه، أو بالأحرى ميدان الروح، ولكي يطبع ديكارت العالم بالطابع العلمي؛ وجد لزاماً عليه أن يجرِّد العالم الطبيعي من كل حياة، وقد ذهب إلى حد القول بأنه لما كانت الحيوانات لا تملك روحاً ولا شعوراً، لذلك فإنها لا تتعدى كونها آلات"(١). وما ذكره سترومبرج عن ديكارت؛ هو الذي جعل المفكر الألماني لانجيه يؤكد أن ديكارت وإن كان مُصنَّفاً عقلانياً؛ إلا أنه دعم المادية دعماً كبيراً(٢)، حيث يقول: "ومن المؤكد أن المادية قد وجدت سنداً كبيراً في آراء ديكارت التي تُرجع كل التغيرات في العالم الطبيعي بل وفي الإنسان ذاته إلى ظاهرة الحركة وإلى تأثير الأجسام بعضها في بعض، مما يؤدي تلقائياً إلى استبعاد التفسيرات الصوفية للطبيعة"(٣).

المحور الثاني: كيف تعمل المادية في إنتاج المعرفة (موقف المادة من العقل)

ممكن أن نعتبر أن المادية هي التفسير العقلي للأشياء، وهي التي حاولت تجاوز التفسيرات الميتافيزيقية للكون والطبيعة، سواء كانت هذه التفسيرات صادرة من الدين أو من أي جهة ما ورائية أخرى، وقد اعتبر المفكر الألماني لانجيه أن المادية هي التفسير العقلي للكون حيث يقول: "إن المعركة التي خاضها الفلاسفة الماديون القدماء ضد رجال الأديان الوثنية

(١) تاريخ الفكر الأوروبي، رونالد سترومبرج ص٧٤.

(٢) في مفتتح كتاب ديكارت "مقال في المنهج" أشار ديكارت إلى شيء من العملية الاستقرائية التي لا تخلو من نظرية تجريبية في استقراء الواقع حيث يقول :" ذلك لأني جنيت من ثمار ذلك المنهج ما جعلني أحاول دائماً في الأحكام التي أكوِّنها عن نفسي أن أميل إلى جهة الحذر، أكثر من ميلي إلى جهة الغرور ـــ ولما نظرت بعين الفيلسوف إلى أفعال الناس ومقاصدهم لم يكد يظهر لي أن شيئاً منها عبث وعديم النفع، على أن التقدم الذي أظنني تقدمته في البحث عن الحقيقة، قد بلغ بي غاية الرضا، ومهَّد لي في المستقبل آمالاً تجعلني أرى أنه إذا كان من مشاغل الناس من حيث هم ناس ما هو خير وذو خطر، فلي أن أجرؤ على القول بأنه هو العمل الذي تخيَّرته" انظر مقال في المنهج، ديكارت ص١٦٤.

(٣) تاريخ المادية للانجيه ص٢٨.

راجعة إلى كراهيتهم للروحانية أو للمثل العليا؛ والذي كان مبعثها الوحيد هو تأكيد حكم العقل وسيادة القانونية في فهم العالم، والرغبة في المضي في التفسير إلى أقصى مدى ممكن، ومعاداة الجهل في كل صوره، ومنها تلك الصورة التي تؤكد عدم قابلية ظواهر كثيرة في الكون للتفسير العلمي. وبهذا المعنى تكون المادية مرادفة للنزعة إلى التفسير العقلي للأشياء، وأقوى دليل على ذلك ارتباطها الدائم بالتقدم العلمي"(١)، وهي بهذا الشيء تشترك مع العقلانية بأنها إعطاء تفسير معقول للكون والطبيعة خاضع للقوانين المادية.

وإذا كانت المادية تُعتبر هي التفسير العقلي للأشياء؛ فإن موقف المادة من العقل ليس إقصاؤه؛ بل تضمينه آلياتها في نتائجها النهائية، فهي لا تعني عدم استخدام المناهج العقلية التحليلية، وهذا ما أكد عليه المفكر البولندي بوشنكسي عند حديثه عن المنهج المادي في المعرفة الغربية بقوله: "وبالرغم من أن معظم المعلنين عن انتمائهم لهذه المذاهب –أي المذاهب المادية– لا يمكن اعتبارهم ماديين خلَّص إلا أنهم جميعا يميلون ميلاً واضحا إلى المادية...وكل هؤلاء المفكرين عقليون لا يساورهم أدنى شك في الاتجاه العقلاني، بمعنى يعتقدون في قيمة المناهج العقلية والتحليلية"(٢).

ويتأكد الموقف الحضوري للعقل في الاتجاهات المادية؛ بأنه لا يمكن تحصيل معرفة إلا من خلال تدخل العقل بطريقة أو بأخرى على اختلافٍ في ذلك، لكن المهم قوله هنا أن العقل حاضر، ولا يمكن تجاوزه، وقد فسَّر عبد الوهاب المسيري موقف المادة من العقل بقوله: "فلو أن الواقع هو هذا الكل المادي الثابت المتماسك المتجاوز ذي الغرض؛ ولا يوجد عقل يدركه، فإنه لا يمكن أن تنشأ منظومات معرفية وأخلاقية عقلانية بمفردها"(٣). ونلاحظ

(١) تاريخ المادية للانجيه ص٢١

(٢) الفلسفة المعاصرة في أوروبا، بوشنكسي ص٣٠.

(٣) الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري ص٣٠.

هنا أن موقف المادية من العقل أنها جعلته هو ما ينتج عن التجربة الحسية وانعكاس ذلك على الواقع المادي وعلى الدماغ، فهي آمنت بالعقل ولكن جعلته أحد صور المادة وجعلت نشاطه هو حركة الواقع وتجميع الأطر العامة من الجزئيات المادية، والخروج بنظرة كلية هي القانون أو الدليل العقلي، فهو في النهاية وليد التجربة الحسية.

لكن ما طبيعة العقل في الاتجاهات المادية؟ إن عموم الاتجاهات المادية تعترف بالعقل ولكنها تعطيه صورة مادية أي صورة مُنتجَة من واقع مادي، فالنظرية الداروينية على سبيل المثال ترى أن العقل قد ظهر من خلال عملية التطور الكامنة في المادة ذاتها التي نشأت منها الكائنات، أما الماركسية فإنها ترى العقل ظهر من خلال انعكاس جدل الإنسان مع الطبيعة، أما دوركهايم فقد تحدث عن العقل الجمعي بصفته عقل مكوَّن من عموم تجارب مادية لبشر يعيشون ضمن ظروف معينة.

ومهما اختلف موقف المادية من العقل؛ فإنها لا تستطيع تجاوزه، بل أن بعض الماديات الغالية لم تستطع إنكار دور العقل، وجعلته مكمِّلاً في إنتاج المعرفة، ولكنها فسرت العقل تفسيراً مادياً، كما يقول المفكر البولندي بوشنكسي: "يرى المذهب المادي أن العالم المادي هو وحده العالم الحقيقي، وأن العقل ليس إلا نتاجاً لعضو مادي، الذي هو الدماغ. ويرى كذلك أن التعارض بين المادة والوعي لا قيمة له في نظرية المعرفة. أما في نظرية الوجود فلا يوجد شيء غير المادة"[١]، وأما في مدرسة جون لوك التجريبية؛ فإنها احتفظت بمهمات العقل التحليلية ولكنها جعلته شبيهاً بالمادة، كما يعطي جون لوك مفهومه للعقل بأنه: "عنصر أولي بسيط التكوين لا يتجزأ ولا يتحلل كما هو الشأن في الشيء المادي"[٢]، فالمادية في أحيانٍ تجعل العقل

(١) الفلسفة المعاصرة في أوربا، بوشنكسي ص٩٥.

(٢) جون لوك من فلاسفة الإنجليز في العصر الحديث، فاروق عبد المعطي ص٢٩

عضواً مادياً يستقبل انعكاسات الحواس وليس قوة. ونحن لا يهمنا تفسيرها تفسيراً مادياً أو غير مادي، وما يهمنا هو أنه حتى الاتجاه المادي يجد نفسه مضطراً لإعطاء العقل مساحة لا بأس بها للعقل، وهنا يظهر ويتجلى وجه التداخل.

تعقيب ختامي:

عندما نقول إن المادية قسيم العقلانية لا نعني بذلك التحديد الدقيق، فإن التحديد الدقيق لا يوجد في الدراسات الفكرية، بل هناك مساحات ضبابيَّة ومساحات مشتركة قد لا تتميز تلك المساحات بشكل دقيق، وقد أشار إلى هذا الموضوع الدقيق المفكر البريطاني جون كوتنغهام بقوله: "يجب ألا تُعد العقلانية والتجريبية رسماً لمساحتي أرض دقيقتين يمتنع دخولهما معاً، ففي كثير من الأحيان ستكون هناك درجة ملحوظة من التداخل إلى حد أن فيلسوفاً معيناً يتلاءم مع نموذج العقلانية في ناحية واحدة، قد تكون في فكره خيوط أخرى دالة على النظرة الأكثر تجريبية"[١] ونظراً للتداخل بين هذين الاتجاهين لا يمكن الفصل بين الاتجاهين بجعلهما مساحتين مستقلتين عن بعضهما البعض، بل يصح القول عن العقلانية والمادية بأنهما أدوات للمعرفة متداخلة، لا يمكن الفصل بينهما فصلاً حديًّا تاماً.

(١) العقلانية فلسفة متجددة، جون كتنغهام ص١٩، ٢٠ .

الخاتمة

- هناك عدة اتجاهات فكرية معاصرة تجتمع في المفهوم المادي –تقريباً– "فالتجريبية" و "الواقعية" و"الطبيعيَّة" و "الحسيَّة" كلها تلتقي في موضوع واحد وهو المادية، أي المعرفة المنطلقة من أساس مادي، في مقابل المعرفة المنطلقة من أساس غيبي أو ماورائي أو روحي أو ديني أو ما يرادف هذه المعاني.
- تعتبر المادية من أهم الأسس العامة للمعرفة في الفكر الغربي، ولا يوجد مذهب من المذاهب الفكرية المعاصرة إلا وينطلق من إحدى منطلقاتها الأساسية.
- هناك عدَّة مصطلحات استخدمها الباحثون والمفكرون للتعبير عن الاتجاه العقلاني فقد أسماها البعض: مثالية، أو ذاتية، أو عقلانية، وهو الأشهر، وكل هذه المصطلحات تلتقي في معانٍ مشتركة، وهو اعتبار العقل محور المعرفة والتلقي في كل المعارف دون استثناء.
- تعتبر العقلانية أساساً فكرياً لكل المعارف في الفكر الغربي سواء كانت هذه المعرفة عن الإنسان أو الكون أو الواقع، وتشترك في ذلك كل المذاهب الفكرية المعاصرة، وتختلف في اتجاهاتها، اختلافاً يصل إلى حدِّ التعارض أحياناً.
- لا تعني العقلانية استخدام العقل في الوصول إلى المعارف فحسب؛ فإن هذا أمرٌ مشروع؛ وإنما تعني استقلال العقل في الحصول على المعرفة المتكاملة بما فيها المعرفة الدينية. كما أن العقلانية تستخدم في مقابل المادية؛ فإنها كذلك تستخدم في مقابل النزعة الإيمانية التي تستمد معارفها من الوحي.

- من خلال استعراض النزعة المادية والعقلانية في الفكر الغربي؛ نلحظ أنها قائمة على أفكار مشتركة، ويجب عند التعاطي معها ألا نأخذها كجزر منفصلة وأن كل اتجاه لا يمت للاتجاه الآخر بصلة، وإنما التعاطي معها مع استحضار نقاط الاشتراك والتداخل بينها.
- تتناول بعض النصوص الغربية المادية والعقلانية مما يشير إلى نوع من الفصل المنهجي بينمها، ولكن عند التحقيق فإن هذا الفصل إنما هو على مستوى التصوير الذهني، وهو أشبه بتحديد مناط المركزية في المنهج؛ هل هو النواة الحسية أو النواة العقلية، وإلا فإنه في أثناء الإعمال والاشتغال، فإن هذا يبدو متعذراً، حيث إن العقلانية لا تنحِّي المادية تماماً، وفي المقابل فإن المادية لا تقصي العقلانية تماماً.
- ترى العقلانية أن المعقول هو الذي يخضع لقوانين المادة، وما لا يخضع فهو غير معقول، وكذلك فإن المادية تُعتبر هي التفسير العقلي للأشياء، التفسير الذي يتجاوز التفسيرات الميتافيزيقية للكون والطبيعة. وبهذه تلتقي العقلانية مع المادية باستبعاد أي معرفة خارج قوانين الطبيعة مهما كان مصدرها.
- إن تداول المادية والعقلانية في عموم الدراسات الغربية ينتهي إلى هذا التداخل، وأنه لا يمكن بحال تكوين معرفة عقلية محضة دون المرور على مفاصل مادية، وفي المقابل لا يمكن تكوين معرفة مادية محضة دون أن يكون خلفها جهاز عقلي ينظِّمها.
- إذا كانت المادية تُعتبر هي التفسير العقلي للأشياء؛ فإن موقف المادة من العقل ليس إقصاؤه؛ بل تضمينه آلياتها في نتائجها النهائية، فهي لا تعني عدم استخدام المناهج العقلية التحليلية، بل جعلت العقل هو حركة الواقع، وتجميع الأطر العامة من الجزئيات المادية، والخروج بنظرة كلية هي القانون أو الدليل العقلي، فهو في النهاية وليد التجربة الحسية.

فهرس المراجع

-أبحاث في النظرية العامة في العقلانية العمل الاجتماعي والحس المشترك، ريمون بودون، ترجمة: جورج سليمان، المنظمة العربية للترجمة، بيروت الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
-تاريخ الفكر الأوروبي الحديث، رونالد سترومبرج، ترجمة: أحمد الشايب، دار القارئ الجديد، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ.
-تاريخ الفكر الغربي من اليونان القديمة إلى القرن العشرين، غنار سكيربك و نلز غليجي، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١٢م.
-تاريخ المادية للانجيه، فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م.
-تشكيل العقل الحديث، كرين برينتون، ترجمة: شوقي جلال، كتاب عالم المعرفة (٨٢) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٤م.
-جون لوك من فلاسفة الإنجليز في العصر الحديث، فاروق عبد المعطي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
-العقل والعقلانية نصوص فلسفية، ترجمة محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال، الدار البيضاء، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧م.
-العقلانية التطبيقية، غاستون باشلار، ترجمة: بسام الهاشم، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.
-العقلانية فلسفة متجددة، جون كتنغهام، ترجمة: محمود الهاشمي، مركز الإنماء الحضاري، حلب، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
-الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان، عبد الوهاب المسيري، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ.

-الفلسفة المعاصرة في أوروبا، إ.م. بوشنسكي، ترجمة: عزت قرني، كتاب المعرفة (١٦٥) المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٢م.
-الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، هنتر ميد، ترجمة: فؤاد زكريا، دار نهضة مصر، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٥م.
-الفلسفة موضوعات مفتاحية، جوليان باجيني، ترجمة: أديب يوسف شيش، دار التكوين والترجمة، دمشق، الطبعة الأولى، ٢٠١٠م.
-قصة الفلسفة الحديثة، أحمد أمين وزكي نجيب محمود، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٣٥٥هـ.
-مبادئ الفلسفة، أ.س. رابوبرت، ترجمة: أحمد أمين، منشورات البندقية، القاهرة، الطبعة، الطبعة الأولى، ٢٠١٧م.
-مبادئ أولية في الفلسفة، جورج بوليتزر، ترجمة: فهيمة شرف الدين، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الخامسة، ٢٠٠١م.
-مدخل جديد إلى الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، الطبعة الأولى ١٩٧٥م.
-المعجم الفلسفي، جميل صليبا، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ١٩٩٤م.
-المعجم الفلسفي، مراد وهبة، دار قباء الحديثة، القاهرة، ٢٠٠٧م.
-المعجم الفلسفي، مصطفى حسيبة، دار أسامة للنشر، عمان الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.
-معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، جلال الدين سعد، دار الجنوب للنشر، تونس، ٢٠٠٤م.
-مقال في المنهج، ديكارت، ترجمة: محمود الخضري، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥م.
-موسوعة الفلسفة، عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت الطبعة الأولى، ١٩٨٤م.

-موسوعة لالاند الفلسفية، أندرية لالاند، ترجمة: خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت وباريس، الطبعة الثانية، ٢٠٠١م.
-النظرية المادية في المعرفة، روجيه جارودي، ترجمة: إبراهيم قريط، دار دمشق، دمشق
-نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، راجح الكردي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م.

ثانياً :
التفسير وعلوم القرآن